العنف والعنف المضاد لدى المرأة فى السينما المصرية

تحليل مضمون لعينة من الأفلام فى مراحل زمنية مختلفة*

إحسان سعيد**

مقدمة

واكب النشاط المكثف للحركات النسائية – الذى بدا ملحوظاً منذ السبعينيات من القرن الماضى – اهتماماً بقضية العنف ضد المرأة ، والتى اعتبرت منذ ذلك الحين قضية مجتمعية بالغة الأهمية ، بعد أن أصبحت ظاهرة عالمية لاترتبط بدرجة تقدم المجتمع أو تخلفه ، كما أنها لاترتبط بالمستوى الاقتصادى أو الاجتماعى لأفراده . فقد أثبتت الدراسات أن المرأة قد تقع ضحية للعنف فى مختلف المجتمعات ، بل فى كافة الطبقات والشرائح المجتمعية ، كما تمارسه هى أيضاً حفاظاً على ذاتها وحقوقها ، وحيث إن النساء مستهدفات لعنف الرجال بصفتهن ، وللسياق الاجتماعى والثقافى المحيط بهن الذى يحوى عوامل محرضة على العنف ضدهن ومبررة له أيضاً ، مما عمل على تهديد أمن المرأة واستقرارها الاجتماعى والنفسى . ومن الخصائص الجديدة المصاحبة للعنف فى حياتنا المعاصرة ازدياد أشكاله وتنوع صوره ، ومنها ازدياد عنف المرأة كرد فعل للعنف الواقع عليها .

* ملخص رسالة دكتوراه ، قسم علم الاجتماع ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ٢٠٠٧ .

** خبير ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية .

المجلة الجنائية القومية ، المجلد الحادى والخمسون ، العدد الثانى ، يوليو ٢٠٠٨ .

والدراسة الراهنة تستمد أهميتها من أنه برغم انتشار هذه الظاهرة وإدراكها على مستوى المجتمعات المختلفة ، فإنها فى ازدياد مستمر ، ولم يتراجع أى من أسبابها أو المارسين لها أو أشكالها أو الفئات الأكثر تعرضا لها ، وباعتبار أن وسائل الإعلام المختلفة إحدى الآليات المسببة للعنف ، والتى تؤيد هذا الحكم فى المجتمع ، حيث إنها إحدى أبرز الأدوات المجتمعية الفاعلة ، والتى تسعى إلى تحقيق عملية الضبط الاجتماعى التى يعتمد عليها لإقرار حالة الاستقرار فى المجتمع . ومن الملاحظ أن هذه الوسائل تستخدم فى معظمها – عملية التلقين فقط لتوصيل المعلومة إلى أفراد المجتمع ، وهذا يعمل على ضحد المحاولات الإبداعية والابتكارية ، ويحد من القدرة على إبداء الرأى الآخر والمعارضة والنقاش وتحقيق الذات ، كل ذلك يسهم ويكثف من حدة تراكم القهر الموجه إلى الفرد ، مما يدفع به إلى الأخذ بأساليب العنف فى تعامله مع الآخرين .

ومن جانب آخر ، تدعو المادة الدرامية المتداولة بكثافة فى الآونة الأخيرة إلى تقليد العنف فى صوره المختلفة ، فالكثير من الأفلام الروائية – سواء العربية أو الأجنبية – إنما تدفع وتثير فيهم النزوع إلى ممارسة العنف ، مما جعل بعض العلماء ينظرون إلى وسائل الإعلام – بصفة عامة – والسينمائية – بصفة خاصة – باعتبارها من أبرز العوامل الخارجية المؤثرة فى انتشار ظاهرة العنف فى الكثير من المجتمعات ؛ وذلك نظراً لانتشارها الهائل وقوة تأثيرها ، لاسيما بعد التقدم السريع فى تكنولوچيا الاتصالات ، فضلاً عن كثافة معدلات التعرض اليومى لها بين الأطفال والمراهقين والنساء ، أو الفئات الأكثر تأثراً بما تحويه هذه الوسائل من مضامين تحوى الكثير من مظاهر العنف . وتتضاعف خطورة هذا التأثر المحتمل لمشاهدة العنف ، سواء على شاشة السينما ،

أو الأفلام التى تعرض فى التليفزيون ، ومع التزايد المستمر للوقت الذى يقضيه الفرد فى التعرض لمشاهدة الأفلام ، ومع تزايد الإقبال على مشاهدة الدراما التليفزيونية والسينمائية – سواء العربية أو الأجنبية – بين مختلف فئات الجمهور ، لاسيما الأطفال والشباب والنساء .

أهداف الدراسة

هدفت الدراسة إلى تحليل المادة الدرامية المقدمة فى الأفلام السينمائية من مشاهد العنف والعنف المضاد لدى المرأة ، وعلاقته بانتشارها وتغلغلها فى المجتمع المصرى .

- الوقوف على صورة الدراما فى الأفلام السينمائية التى تتناول ظاهرة العنف ضد المرأة ، باعتبار أنها أحد الروافد التى تساهم فى تعميق ثقافة العنف فى المجتمع .
- التعرف على دور الأفلام السينمائية لمواجهة الظاهرة .
- إثارة وعى أفراد المجتمع بخطورة ظاهرة العنف ضد المرأة ، والتى تهدد الأمن الذاتى والأمن المجتمعى من خلال الدراما السينمائية المقدمة .
- علاقة التحولات الاجتماعية والاقتصادية بحجم تقديم العنف فى الأفلام السينمائية .

تساؤلات الدراسة

وفقاً للأهداف المشار إليها ، رأت الباحثة ضرورة أن توجه الدراسة بحيث تجيب على التساؤلات التالية :

- ما أنماط وأشكال العنف والعنف المضاد للمرأة من خلال ماتقدمه الأفلام السينمائية ؟

- ما أكثر أنماط العنف تناولاً فى الأفلام السينمائية : العنف الأسرى ، أم المؤسسى ، أم المجتمعى ؟
- ما نوعية الإناث المستهدفات للعنف كما ورد فى الدراما السينمائية : الطفلة ، المراهقة ، الزوجة ؟
- ما مشاهد العنف والعنف المضاد الأكثر شيوعاً لدى المرأة فى الأفلام ، سواء المعنوية ، أو النفسية ، أو الجسمية ، أو الجنسية ؟
- ما ردود أفعال النساء عند تعرضهن للعنف كما ورد فى الأفلام ؟
- هل يمارس القهر الاجتماعى والثقافى دوراً فى ظاهرة العنف لدى المرأة أم قهر الزوج أم الإناث معاً ؟
- أى أنواع العنف الواقع على المرأة يؤدى إلى رد فعل مضاد : العنف البدنى ، أم النفسى ؟

الإجراءات المنهجية للبحث

أسلوب الدراسة

تحقيقاً لهدف البحث والرد على تساؤلاته ، تم استخدام أسلوب تحليل المضمون بشقيه : "الكمى والكيفى ، على اعتبار أنه أسلوب يكشف عن محتوى المادة التى تخضع للتحليل دون تحيز من المحلل ، وذلك بوضع قواعد محددة للتحليل يتفق عليها جميع المحللين الذين يقومون بدراسة المادة الاتصالية وتحليل مضمونها . كما يعد أسلوب تحليل المضمون أحد الأساليب البحثية التى تستخدم لتحليل المادة الاتصالية ، ويعرفه "برلسون" – المؤسس الفعلى لهذا الأسلوب – بأنه يعد وصفاً موضوعياً ومنظما وكميا للمحتوى الظاهر لمادة الاتصال ، ومادة الاتصال فى البحث الراهن هى الأفلام السينمائية التى خضعت للتحليل . وقد استخدمت الباحثة نوعين من تحليل المضمون هما : التحليل الكمى ، والتحليل الكيفى .

أدوات الدراسة

اعتمدت الدراسة على استمارة تحليل المضمون ، والتى احتوت على عدة عناصر الغرض منها تحقيق هدف الدراسة ، والوقوف على تساؤلاتها ، وتشمل :

- الخصائص العامة للأفلام ، مثل : سنة العرض ، ونوع الفيلم ، والفترة الزمنية التى يعالجها ، والبيئة التى تدور فيها الأحداث .
- أنماط العنف ضد المرأة فى مراحل العمر المختلفة (طفلة ، إمرأة ، مسنة) كما وردت فى الأفلام .
- أنماط عنف المرأة (ممارسة العنف كجان أو متهم ، أو ممارسة العنف المضاد كمجنى عليها تتحول إلى جان) .
- تحليل صور العنف كما وردت فى العينة .

عينة الدراسة

تم اختيار عينة عمدية تحكمية على أساس البعد التاريخى من نماذج مرحلية للأفلام التى تناولت موضوع العنف والعنف المضاد لدى المرأة عبر تاريخ السينما المصرية منذ بدايتها وحتى وقتنا الراهن . وقد بلغ عددها ٦٠ فيلما ، تحتوى على أهم مشاهد العنف والعنف المضاد للمرأة عبر تاريخ السينما فى كل مراحله المختلفة ، حيث قامت الباحثة باستخلاص الأفلام التى تناولت العنف والعنف المضاد للمرأة عبر تاريخ الإنتاج السينمائى منذ بداية عام ١٩٢٧ إلى عام ٢٠٠٧، وصنفتها إلى أربع مراحل تاريخية هى : مرحلة ماقبل الثورة ، ومرحلة مابعد الثورة ، ومرحلة الانفتاح الاقتصادى ، ومرحلة العولمة والألفية الثانية ، حيث إن هذه المراحل حدثت بها تغيرات سياسية واقتصادية أثرت فى الواقع المصرى . وتم سحب عينة عمدية تحكمية وعينة بديلة بلغ عدد الأفلام بالعينة ٦٢

فيلما ، استطاعت الباحثة الحصول على ٦٠ فيلما ، هى الأفلام التى تم عمل تحليل مضمون لها ، وقد استعانت الباحثة بقنوات ART وروتانا والتليفزيون المصرى وشرائط الفيديو والمركز الكاثوليكى وقصر ثقافة السينما للحصول على الأفلام ومشاهدتها ، خاصة الأفلام القديمة .

أهم النتائج

اهتمت هذه الدراسة بتحليل التناول السينمائى لظاهرة العنف والعنف المضاد للمرأة ، وذلك عبر الفترات السينمائية المختلفة ، حيث تم أخذ عينة كنموذج تعبر عن كل فترة من فترات السينما التى تتمثل فى فترة ماقبل الثورة ومثلتها عينة مكونة من ٥ أفلام ، وفترة الثورة وتم تمثيلها بعينة من ٢٢ فيلما ، وفترة الانفتاح ١٧ فيلما ، وفترة الهيكلة ٨ أفلام ، والألفية الثانية وعينتها ٦ أفلام ، والمجموع الكلى ٦٠ فيلما سينمائيا خضعت للتحليل عبر المراحل الزمنية المختلفة .

وقد تضمنت أبرز المحاور التى تركز عليها تحليل مضمون الأفلام السينمائية على الأبعاد التى تم من خلالها تناول ظاهرة العنف والعنف المضاد للمرأة فى السينما ، وهى أنماط العنف ضد المرأة كما وردت فى الأفلام ، وأنماط العنف ضد الطفلة الأنثى ، وأنماط عنف المرأة ، تحليل صور العنف كما وردت فى الأفلام موضوع العينة .

وفى ضوء أهداف الدراسة وتساؤلاتها وتفسيراتها النظرية المتبعة ، تم استخلاص عدة نتائج من خلال تحليل مضمون عينة من الأفلام السينمائية تناولت موضوع العنف ضد المرأة ، أو ضد الفتاة ، أو عنف المرأة ، ومن أهمها ما يلى :

١ - أشارت نتائج التحليل إلى تعدد الأماكن التى يتم فيها العنف ضد المرأة وعنف المرأة بمختلف أنماطه وأشكاله وخاصة المنزل بنسبة ٥ر٤٩٪ .

٢ - كما أن ممارسة العنف ضد المرأة ينتشر فى البيئة الحضرية ويقل فى البيئة الريفية كما ورد فى عينة الدراسة موضوع التحليل ، حيث بلغت مشاهد العنف فى البيئة الحضرية ٤ر٨١٪ .

٣ - غلبت الشخصية العنيفة على أدوار البطل ، حيث بلغت أكثر من نصف العينة (٤ر٥٢٪) ، وهذه نتيجة هامة باعتبار أن شخصية البطل تعد أكثر الشخصيات تأثيراً فى المشاهدين .

٤ - كما تشير نتائج التحليل إلى أن ضحية العنف وردت فى دور البطلة فى أكثر من نصف العينة بنسبة ٩ر٨٠٪ .

وهاتان النتيجتان توحيان بأن الأفلام التى تتناول العنف يؤدى فيها مرتكب العنف دور البطل والضحية دور البطلة .

وهذه نتيجة تثبت أن الأفلام كرست العنف بصفة عامة ، سواء عنف المرأة أو العنف ضد المرأة ، فالغلبة هنا للعنف ضد المرأة ، حيث إنها دعمت صورة المرأة الضحية المعنفة المغلوبة على أمرها ، ووضعت المرأة ضحية العنف كبطلة للأفلام ؛ حتى تقنع المشاهدات والمتلقيات بأن هذا وضعهن الطبيعى فى الحياة .

٥ - كما كشفت النتائج عن أن الأزواج هم أكثر الأشخاص مرتكبى العنف ضد المرأة ، حيث بلغت النسبة ٥ر٢٩٪ ، وهى أعلى نسبة مقارنة بالمتغيرات الأخرى ، يليها الحبيب الذى يمارس العنف ضد حبيبته بنسبة ٩ر١٦٪ .

٦ - أيضاً كشفت النتائج عن أن عنف المرأة ينصب - فى المقام الأول - على الحبيب ، فقد جاءت علاقة عنف المرأة بالحبيب ٢ر٢٩٪ ، وهى أعلى نسبة

مقارنة بالمتغيرات الأخرى ، ثم يليها العنف الذاتى حيث إن المرأة عندما تشعر بالقهر تمارس العنف تجاه نفسها ، ثم يأتى ممارسة العنف ضد الزوج . ومن خلال تحليل نتائج الدراسة أشارت إلى أن من أهم أسباب ممارسة العنف ضد المرأة أسباب اجتماعية ، تليها الأسباب الاقتصادية ، ثم الأسباب الثقافية ، والأسباب السياسية ، ولم تختلف تلك النتيجة عن أسباب عنف المرأة .

٧ - أوضحت النتائج أن العنف ضد المرأة وعنف المرأة - كما ورد فى عينة الأفلام موضوع الدراسة - أن الآثار السلوكية جاءت فى المقدمة ، تليها الآثار النفسية وما يصاحبها من توتر وإحباط واكتئاب قد يصل لحد الجنون ، ثم تأتى الآثار الجسدية وما فيها من تحديات وعاهات وتشوهات من آثار الضرب والجذب ، وقد ينتهى الأمر بالقتل أو الشروع فى القتل .

٨ - ومن الملفت للنظر أن عقاب مرتكب العنف - كما ورد فى الأفلام موضوع التحليل - غلبت عليه شعور مرتكبه بالندم على مافعل ، حيث بلغت تلك النسبة ٩ر٣٧٪ ، حيث يندم المعتدى فى نهاية الفيلم ، وينتهى بنهاية سعيدة ، وأيضاً يزيد من الاندهاش أن العقاب التالى هو النهاية المفترضة التى لم يتضح فيها العقاب ، وهذا ما يتفق وطبيعة الدراما فى صناعة السينما ، حيث النهايات السعيدة . وجاء العقاب القانونى بنسبة ضئيلة جداً تصل إلى ٣ر١٠٪ .

٩ - لم تهتم الدراما السينمائية بتوضيح المستوى التعليمى للمرأة فى معظم أفلام العينة . كما لم تهتم بتوضيح الحالة العملية للمرأة ، سواء المعنفة أو التى ترتكب العنف .

١٠- كما أشارت نتائج الدراسات إلى وجود العنف الأسرى ضد المرأة فى ٣٣

فيلما ، وقد اتخذ شكل إجبار الابنة على الزواج ممن لاترغب فيه ومنعها من الزواج ممن تحب فى محاولة لقمعها والتحكم فى قراراتها ؛ بهدف المحافظة على الشرف والعادات والتقاليد ، مما يتفق وطبيعة المرحلة الزمنية قبل الثورة ، حيث كانت المرأة تكافح من أجل الحصول على حقها فى التعليم والعمل واختيار الشريك ، فى حين أن المجتمع كله كان يقابل هذا بالرفض .

١١- كما اتخذ العنف شكلا أكثر حدة فى فترة ما بعد الثورة متمثلا فى الضرب والقتل . وفى فترة الانفتاح ظهرت مشاهد العنف جلية واضحة ، خاصة بعد أن خرجت المرأة إلى مجالات العمل المختلفة ، وزاد احتكاكها بالمجتمع .

١٢- وظهر العنف المؤسسى ضد المرأة متمثلا فى رفض المجتمع لعملها ، وتحديه لها ، خاصة فى فترة الثلاثينيات والأربعينيات ، ثم ظهرت بوادر الاحتكاك بها والتحرش بها فى العمل وخلق الشائعات والفضائح . وأشارت نتائج الدراسة إلى المرأة وخاصة الفقيرة التى تواجه أشكالا متعددة من العنف المجتمعى متمثلا فى القهر الاقتصادى والاجتماعى ، وتأتى السياسة الاقتصادية بأشكال جديدة من القهر الاقتصادى والاجتماعى ، منها - على سبيل المثال - اضطرار أعداد متزايدة من النساء إلى دخول سوق العمل غير الرسمى ، مهما كان الأجر ومهما كانت شروط العمل بالغة القسوة .

١٣- واتضح من خلال الدراسة أننا نعيش فى ثقافة تعطى الأولوية للطفل الذكر تخصه بتمييزات لاتحصل عليها الطفلة الأنثى ، وينتقل الاتجاه إلى معاملة الفتاة عبر أفراد الأسرة ، وبالتالى إلى بقية أفراد المجتمع ، فتعامل على أنها النوع الأضعف والأقل قدرة والأدنى مكانة .

فتتعرض الفتاة للاغتصاب ، حيث تشير الدراسات إلى أن العنف الجسدى والانتهاك البدنى من أكثر أشكال العنف ضد الفتيات شيوعاً ، ثم تليها عمل الإناث المبكر كخادمات فى المنازل وفى الحقول ، وافتقادهن للتعليم بسبب تدنى المستوى الاقتصادى .

ثم يأتى الزواج المبكر ليكمل دائرة العنف ضد الفتاة ، فنجد الفتاة نفسها مسئولة عن علاقة زوجية غير مؤهلة لها نفسياً أو جسدياً من حيث الأعمال المنزلية والزراعية فى بعض الأحيان ، وتتعرض الفتيات لعمليات الختان كنمط من أنماط العنف المباشر ضد الطفلة .

فنجد أن الدراما السينمائية فى جميع مراحلها كرست العنف ضد المرأة ، تماشت مع المعتقدات الاجتماعية ، وطرحت قضايا المرأة على استحياء ، ولم تقدم حلولا لمشكلاتها ، بل تركت معظم النهايات مفتوحة ؛ حتى يضع المجتمع والواقع الذى يفرض نفسه من تحولات وثغرات النهاية المتاحة . وأشارت نتائج التحليل إلى تنوع أشكال العنف التى وردت فى الأفلام ، سواء التى تمارس ضد المرأة ، أو التى مارستها المرأة .